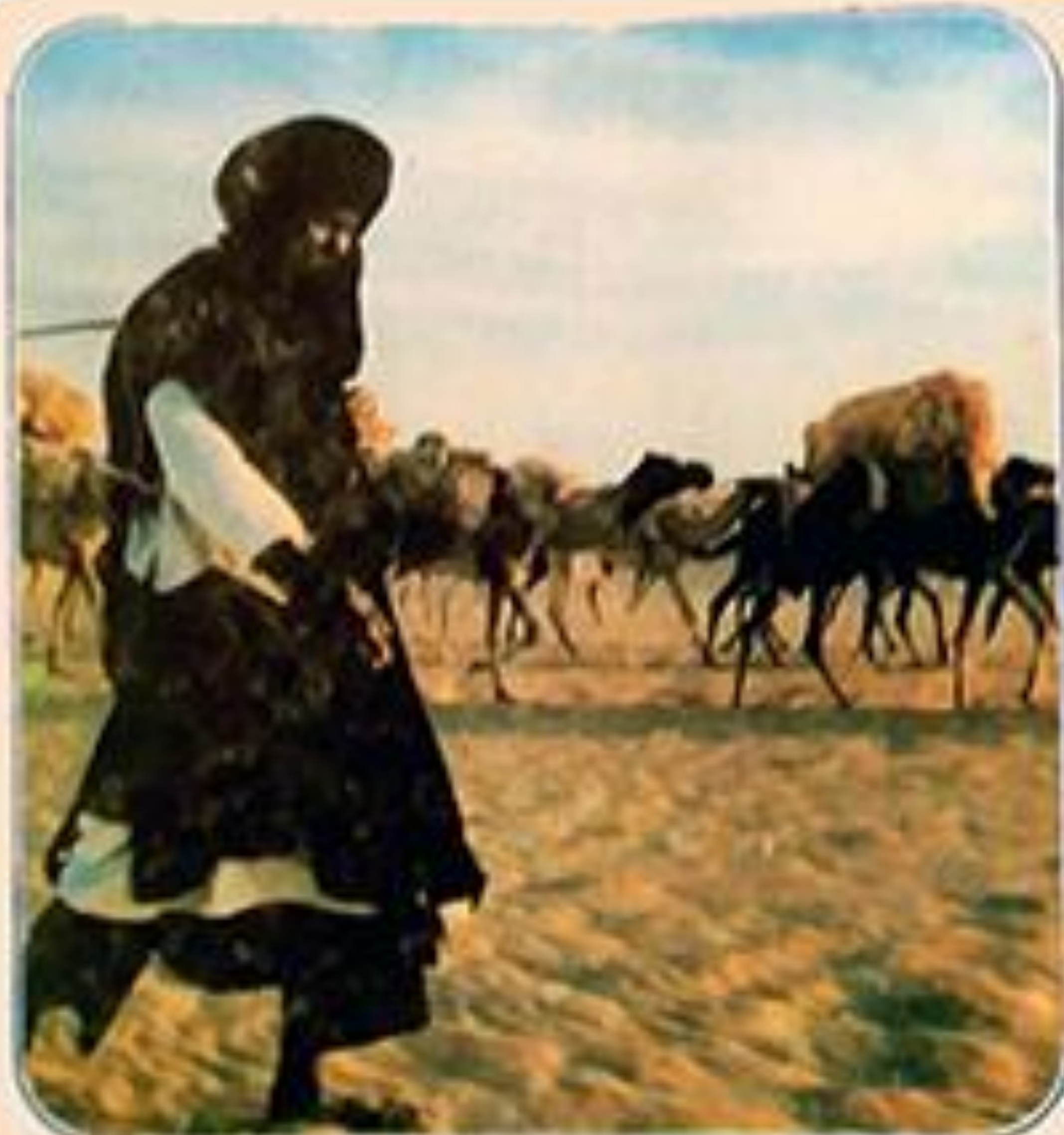
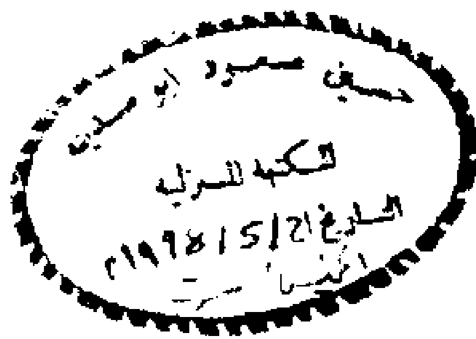
مجلة

الجمعية الجغرافية الليبية



العدد الأول السنة الأولى 1425 (1996)



مجلة

الجمعية الجغرافية الليبية

تصدر سنوياً عن الجمعية الجغرافية الليبية



الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

بنغازي

مجلة الجمعية الجغرافية الليبية

العنوان: قسم الجغرافيا - جامعة قاريونس

ص.ب 18244 بنغازى

المحتويات

تم تمويل فاتح أعداد مجلة الجمعية الجغرافية الليبية من ميزانية جامعة قاريونس، التي لا يسع أمانة تحريرها سوى تقديم وافر الشكر والعرفان وفاء لها على هذه اللفتة الكريمة

رئيس التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

عزيزي القارئ

شكرا لا نهاية له لعون العلي القدير، الذي أتاح الظرف الملائم والمناسبة السعيدة اللتين أمكن من خلالهما فك العقال الذي حال دون إنطلاق الجمعية الجغرافية الليبية وأبقى عليها مجرد رهينة دون حراك مدة عقد ونصف، كان بالإمكان خلالها تحقيق العديد من اللقاءات لذوي الاختصاص، وما أكثرهم، في مختلف اطراف بلادنا الحبيبة، وما ينجم عن ذلك من إثراء للدراسات الجغرافية التي لازلنا في أمس الحاجة للقيام بها وتعميم نشرها خدمة لابنائنا الطلبة، ولكل من يهمهم الاطلاع وجني أكبر رصيد من المعلومات التي لا تزال ترنو إلى من يكشف دثارها.

فقد حقق الملتقى الجغرافي الأول بمدينة الزاوية عام 1993، صدور نتائج أعماله في جزئين تحت عنوان: العلوم الجغرافية وحماية البيئة، وحقق اللقاء الثاني بمدينة بنغازي في العام المنصرم، ضمن أحد توصياته صدور هذا العدد من مجلة الجمعية التي حين يكتمل شد الأزر، ويصبح الإحساس بالاسهام فيما تقوم به جزءا من مهام حاملي لواء هذا الفرع من التخصص العلمي، الذين تعتز المجلة بوجودهم وبمساهماتهم الهادفة التي عليهم مضاعفتها كما ونوعا للشعور بأنها لازالت أقل مما يتحتم عليهم القيام به خدمة للصالح العام.

الأخوة القراء

نستسمحكم عذر أية هفوات قد تلفت انتباهكم في الوقت الذي نشكر فيه من تفضل بالمساهمة في توفير المادة العلمية لنواة هذه المجلة المتطلعة لغد أفضل، علما بأننا على استعداد تام لنشر كل ما هو مطابق للشروط كما يشرفنا تلقي اقتراحاتكم فيما يتعلق بالرفع من شأن هذه

الدورية التي يسعدها التنويه بجهد الأخوة في المركز العربي للحاسب الآلي، وكذلك الأخت أميمة عبدالعزيز الضراط، للجهد الذي قدموه في وصول هذا العدد إليكم، مع التأكيد للجميع بأن الدفع والرفع من شأن هذه الدورية لن يكتب له إستمرار التواصل إلا بمعاضدتكم لها.

والله ولي التوفيق

د. الهادي بولقمة

رئـــــيس التحريـــــــر

غات: قراءة في أوراق الرحالة (جيمس ريتشاردسن)*

د. الهادى بولقمه**

مقدمـة

يعد الرحالة جيمس ريتشاردسن، أحد مناهضي العنصرية، وتجارة الرقيق، التي ظل يمارسها بعض أتباع الديانات الرئيسية الثلاث وبالذات حين بات الرقيق يشكلون الدعامة الأولى لبناء الاقتصاد الزراعي في الأطراف الجنوبية من القارة الامريكية الشمالية.

كان المذكور إنسانا مفرط الحساسية ضد جميع صور الظلم الاجتماعي الذي أفرزته حركة النهضة الصناعية في بلاده، حيث يؤكد بأن حياة أي مخلوق لا تساوي شيئا في جوهرها إن لم تكن مفيدة للآخرين، ولذا جاءت فكرة رحيلي إلى الصحراء دون رفيق أو حراسة، كهدف أردت من خلاله تحديد الكيفية والاطار الذي تدور تجارة الرقيق في محيطه، رغم تناولي لهذا الموضوع بالتفصيل في مناسبات عديدة، ولكن خارج نطاقه الجغرافي، منبع أبشع صور هذا الظلم الذي يتقنه البعض في جمع وتكديس ثروات لن يباركها خالق هذا الكون. لقد ولدت وبداخلي كراهية مطلقة ضد كل أنواع الظلم، فتكبيل الرجال تحت لواء حكم مطلق، أو تزييف عقيدة وفرضها على ضمائرهم شئ لا يطاق، إذ تطلعت منذ استطعت ممارسة الإرادة والإدراك، إلى النظر في الإتجار بلحم ودم الإنسان على أنهما أشرس وأبغض نظام عرفته الدنيا. إنه بكل صدق نظام الجريمة يبنى شعاره عن القول بأن قوة السلاح لا يمكنها تحدى إرادة السماء. كما حاولت إعطاء وصف لعدد من الواحات الصحراوية إلى جانب الحديث عما يمكن الإشارة إليه من الطرق، والدروب ليصبح الحديث مقبولا إذ ما عساي قوله، وتكراره، فما ذكرته عن بطش أصحاب المزارع في الجنوب الأمريكي بأبناء أفريقيا البؤساء يعني في أبسط مفهوم له أن ما يجني من سكر في أبعاديات الرقيق هو في الحقيقة والواقع محصول يجمع مقابل جلد ضحايا الرق حتى تنزف دماؤهم.

---

* قدمت في الملتقى الجغرافي الثاني، جامعة قاريونس 1-1424/11/4م.

** أستاذ الجغرافيا بجامعتي قاريونس والسابع من أبريل.

تحدث السيد ريتشاردسن عن كل ما تهيأ له أنه يستحق التنويـه عنـه إنطلاقا مـن خلفيتـه الثقافية الواسعة التى أراد لها إستيعاب كل ما يمكن لرجل مثلـه الإلمـام بـه، بمـا فـي ذلـك معتقده الدينى الذى حاول عبثا، مرات عديدة، السيطرة عليه، رغم إبداء رضاه عن جل أساسيات الديانات الأخرى التي كثـيرا مـا يلجـأ إلـى تسفيه بعض مـا يـراه من نقـاط ضعفهـا، رغـم إشـادته بـالدور الحضـارى المميـز الـذى أسداه أتبـاع سيدنا محمـد صلـى اللـه عليـه وسلم – لخدمـة أبنـاء القـارة السمراء.

ترك هذا الرحالة الجسور، وصفا جيدا وممتعا فى كثير مـن الأحيـان لواحـات غدامـس، مرزق وغات موضوع هذه الورقة التى أفاضت فى الحديث عـن التـاريخ الاجتمـاعى، إلـى جـانب موضـوعات.أخرى آمل أن يجد فيها القارئ ما يضيف به جديدا إلى معلوماتـه، رغـم مـرور قـرن ونصف على تدوينها، وأن يجد فيها الجغرافى ما يبعـث، ويثـير فـى نفسـه عـادة تسـجيل مـا يلفت نظره من مظاهر تستحق أن تظل عالقة بالذهن، الأمـر الـذى لازلنـا نغفلـه، ونتجـاهل أهميتـه فـى إضفاء إحدى السمات التى لابد على الجغرافى الواعى من أخذها فى الاعتبار لأهميتها البالغـة فـى صقل، وإبراز ما يفترض اكتسابه من معارف تحدد درجة وعيه وسعة أفقه.

نعم فقد طاف هذا الرجل جزءا هاما من صحراء بلادنا استغرقت ثمانية أشهر ونصـف، قطع خلالها ألفا وستمائة ميل، منها أربعمائة ميل سيرا على قدميه، كبدتـه اسـتهلاك ثلاثـة أزواج من الأحذية، بينما ظل راكبا ناقته تسعمائة وستين ساعة.

المترجـــــــــم

***

لاحت عند العاشرة صباحا من منتصف ديسمبر عـام 1845، أشـجار نخيـل الواحـة مـن خلال القمم الصخرية المتناثرة، فقد تحول منظر السهل إلى واد ضيق واضح العمق تحفه الهضاب من جانب، بينما ظهرت سلسلة جبال الوريرات على الجانب الأخر.

إستغرق سفري ضمن قافلة غدامس تسعة عشر يوما، قاسيت خلالها الكثير من المشـاق التى هان أمرها مقابل شرف السبق على أى أوربي يسلك هذا الدرب، الذى خصنـى رفـاق الرحلـة فيه بكل ما يعلق بالذهن والذاكرة من كريم المشعر وحميد الخصـال، رغم حدثين لا دخل لأى منهم

فى وقوعهما، أو التنبؤ بهما، وتدوين ما يمكن لإنسان ضعيف مثلى الإشادة به عن كريم سلوكهم، وسمو أخلاقهم. فقد نجوت من الموت المحقق فى المرة الأولى على يد أحد العبيد عند سقوطي من على ظهر ناقتي فوق منحدر صخري، ونجوت فى الثانية من ضربة سيف أحد شيوخ طوارق غات، الذى جره الطمع إلى محاولة إبتزاز فدية نظير تجرؤ كافر مثلى على إجتياز أرضه الحرام وفى المنطقة التى تحرسها منشآت الجن غير بعيد عن مركز المدينة.

هزت هذه التصرفات، رغم تعمدى غض النظر عنها، ثقتى فى الطوارق، وخلفت نذير شؤم أقلق راحتى إذ جاءت هذه الصدمة القاسية والمفاجئة، بعد وقت قصير من استقبالى مبعوث أحد أركان سلطة غات، مرحبا بى فى أرض السلام، مما جعلنى أقر ما سبق لى سماعه عن قيام بعض شيوخهم بتنفيذ ما قد يحلو لهم، رغم وجود سلطان يدين له الجميع بالولاء فى الظاهر على الأقل.

تجمع حولى ساعة الوصول عند منتصف النهار، أناس عديدون وهم فى لهفة إلى رؤية ملامح ذلك المسيحى، الذى وصلتهم أخباره منذ مدة، رغم ارتدائى دثار السفر المغربية التى لا تميز بين أى من رفاق الرحلة.

لم يع أحد تكرار رغبتى فى مقابلة الحاكم، حتى تكرم شاب طرابلسى بترجمة ونقل ما قصدت إليه إلى المعنى وسط حشد من الناس، وربما تجنبا للإحراج، إرتأوا إرسال ابنه الذى تقدم نحوى بأدب جم، وبدا كأى باريسي يعشق الأناقة.

قادنى الشاب إلى منزل يقيم به بعض عبيد والده، وهو يعتذر بكل مشاعره مؤكدا بأن المدينة تغص بمختلف التجار، ولم يعد بالإمكان توفير سكن أكثر ملاءمة، إلا إذا فضلت مشاركتهم الإقامة خارج سور مدينتهم.

أويت الى سكنى ممثلا فى حجرة صغيرة ليس لها باب أو نافذة، فوق سطح المنزل، وهكذا فإن سقفا من الوحل وأغصان الشجيرات بات يمثل مستقرا فخما لإقامتى الذى سرعان ما تردد عليه جملة من العبيد حاملين متاعى من خارج السور، إذ لا يسمح مطلقا بدخول الإبل وحيوانات النقل الأخرى إلى بوابات المدينة مما يعني نقل كل الحاجيات والبضائع عن طريق العبيد الذين تظاهروا، كما هو الحال فى جميع الموانى ومحطات الركاب فى أوربا، بحمل أى شئ

كعصاة أو حبل لينالوا مقابلا عن مجهوداتهم، فالصحراء توفر هى الأخرى نظيرا لجميع ضروب حياة المدينة، علما بأن جميع حاجياتى قد وصلت دونما ضرر أو ضياع وهو ما أثار دهشتى للأمانة التى يتحلى بها أهل غات.

لم يكد يمضى على وصولي وقت يذكر حتى قدم الحاكم، الشيخ أحمد، مستقبلا إياى بكل حفاوة وترحاب، وظل يتحدث معى حتى مجئ الشيخ جربوع، ركن الأرستقراطية المثلى لطوارق المنطقة، الذى إستقبلنى هو الآخر بكل حفاوة وكريم لقاء، فقد كان هذا الرجل الودود هو الذى أرسل خادمه لمقابلتى، غير بعيد عن مشارف الواحة، حيث كدت أفقد حياتى على يد وبسيف ابن عمومته الجشع الشيخ أويك.

سألنى الحاكم وبدون مقدمات تذكر عن أعرق الأسر الحاكمة فى أوربا .. اسرة الباربون كان ردي المباغث أيضا.. وهنا توقف الشيخ ليؤكد أن تاريخ أسرته يعود لأكثر من ثلاثمائة عام.. نعم فكبرياء الإنتماء بين أفراد الأسر العريقة والنبيلة، مثل هذا الحاكم، تضرب بجذورها فى أعماق الصحراء أيضا، فحب الأجداد والأنساب المميزة من سمات البشر أينما وجدوا.

استأذن ضيفاى السماح لهما بالانصراف في الوقت الذى طلب مني الشيخ جربوع، وهو يودعنى بحرارة، نزع الخوف عن نفسى، والغريب أنهما ما كانا ينصرفان حتى ظهر ابن الشيخ الذى كان بالامس يهدد بإنهاء حياتى، ليؤكد بأن والده ما كان له ليرتكب حطيئة إلى مسيحى عظيم مثلى، ألح الابن فى طلب قطعة من السكر، وهو ما لم أبخل به عليه ساعة إنصرافه. كما قمت بعد الظهر، عملا بنصيحة المترجم، بإرسال رغيفين من السكر الفرنسي، ورطل من القرنفل، وآخر من السنبل إلي بيت الحاكم، فالقرنفل سلعة مرغوبة جدا، وبالذات من قبل النسوة لإستعماله في عدة أغراض، فى حين تستعمل أوراق السنبل بعد غليها، كرائحه مميزة عند نساء الطبقة الراقية، تماما كالروائح الجيدة عند نساء أوربا.

كما حملت بنفسى (راسا) رغيفا من السكر إلى جانب ثلاثة ارطال من القرنفل والسنبل وطاقية هدية للشيخ جربوع الذى تقبلها بسرور بالغ ومؤكدا فى نفس الوقت أنه سيستعمل كامل نفوذه لضمان سلامة وصولي إلى منطقتى أهير والسودان، وهو ما عقدت العزم على نسيانه حتى تأكدت من عجزى عن الوفاء بهذا العهد الذى قطعته على نفسى، وتحملت من أجله حسد الأعداء

التى لا أكاد أبصر طريقا واضحا يحدد معالم الطريق إلى نهايتها، فقد أليت على نفسي ساعة مغادرة سور طرابلس قبل أكثر من مائة وخمسين يوما، على ترك حياتى بين يدى العناية الإلهية للتصرف فيها كيفما تشاء، وبأى أسلوب تراه، مع إدراكى الخفى بأن هذه العناية لن تخذلنى وأنا أجاهد لإنهاء أبشع صور التعامل فيما يمارسه ذوو الطمع والجشع الذين لا يقيمون إعتبارا لمزاولة الرق، والإتجار فيه كأى من السلع الرائجة الأخرى.

قام الحاكم بإستضافتي وعلى أفضل ما يكون لمدة ثلاثة أيام كما تقتضى ضيافة ذوي الشأن، وهو ما أدخل السرور على نفسي، وأشعرني بالغبطة لمثل هذا الاستقبال الذى جعلنى أفكر مليا في نوعية وثمن مؤونتي وبالذات حين تأكدت من إرتفاع الاسعار لسرعة نفاد ما يعرض منها من قبل هذا الجمع الكبير من الوافدين وبالذات المؤسرين من التجار منهم.

تتكون عصبية حكم طوارق غات الممثلين لفرع الأزجر، من أربعة رجال يأتى على رأسهم السلطان أو الشيخ الكبير، ممثلا فى شخص السلطان سافو، وولى عهده الأمير خانوخن والمرابط الشيخ أحمد حاكم المدينة، والشيخ أويك، وهو شيخ من الدرجة الثانية، ولا علاقة له بمباشرة أمور الحكم والسياسة رغم مركزه كشيخ داخل جمهورية الطوارق الذين كثيرا ما يتصرفون وكأن مركز السلطان مركز شرفي على الأقل فيما يخص تصريف الأمور داخل الأراضى التى يسيطرون عليها. فكما أكد الحاكم تعج أرض الطوارق بالمشائخ وتتوزع السلطة تبعا لذلك، خاصة وأن نفوذ السلطان يعاني من ضعف قد يدعو إلى وقوع حالات من السلب والنهب. وعلى أية حال فإن المقارنة بين ما حدث اليوم داخل أراضيهم وسط الصحراء، وماحدث فى أوروبا إبان العصور الوسطى، يدين النظام الأخير، لأن شيوخ الطوارق رغم عيشهم تحت أنظمة تكاد تكون مستقلة إلا أنهم ينعمون بالوئام واستتاب الأمن.

يلى هذه الأسماء أهمية فى مباشرة مهام الحكم، مركز الشيخ المرابط جربوع الذى يمثل ويحتل مكانة الرجل الاستوقراطي قولا وعملا، ثم الشيخ بركة أكبر شيوخ المنطقة سنا، وقريبه الملقب الشيخ العملاق، وأخيرا الشيخ حطيطة الذى يلقب هو الآخر بقنصل الانجليز إذ سبقت له مقابلة السيدين كليبر وأودني خلال ما عرف برحلة النيجر قبل مدة خلت.

يظهر التنافس واضحا بين هذه الفئات من خلال تصرفاتهم كأمراء يشكلون قمة السلطة بين طوارق غات، إذ بينما يمتاز السلطان بحسن الخلق، وأدب التصرف مما حد من نفوذه السياسي على أبناء الصحراء الأشداد، إستطاع ولي العهد إحتواء السلطة وبات الرجل المسموع الكلمة على المستوى القومي لجسارته، وحنكته في الحديث، وخوف الجميع منه بإستثناء الشيخ جربوع الذي يتصف بالحكمة وحب الجميع له بما في ذلك سكان الأقاليم البيعدة كتمبكتو، وبإختصار فإن ولي العهد، كما هو الحال مع جل شيوخ الطوارق، رجل طويل القامة، مفتول العضلات، ومع أنه لا يتكلم إلا كلمات قليلة تلفها روح الكبرياء والشجاعة ولا تخرج عن معناها المحدد.

يقطن الحاكم قصرا على بعد ثلثي ميل غربي سور المدينة حيث يقوم بمباشرة مهامته كمرابط وكملك أيضا، وسط أسرة كبيرة قوامها سبع زوجات، وعدد من المحظيات إلى جانب العديد من الأبناء، إضافة إلى خمسين من الأرقاء يعيش بعضهم في أكواخ قرب القصر، أو في الحدائق التي يملكها وجعلت منه أكبر ملاك الواحة، كل ذلك إلى جانب مزاولته بعض الأعمال التجارية إذ يعتزم إيفاد عدد من أبنائه إلى السودان للإتجار في الرقيق رغم مباهاته بانتماء أسرته إلى قبائل مكة، وأن بعض اسلافه كانوا ضمن من حاصروا القسطنطينية قبل استيلاء الأتراك عليها.

وللحق يمتاز الرجل بحدة الذكاء واليقظة، ويملك صفة السياسي، كما يساوره الشك والغيرة من الأوروبيين، ومع أن تعليمه من النوع المتوسط، إلا أنه يعتز بصفته كمرابط قبل أن يكون شيخا أو حاكما ومع إيدائه عدم قبول الهدايا إلا أنه إستلم كل ما قدمته له.

أما الشيخ حطيطة المسئول عن سلامتي، فرجل مسالم لا يملك أى نفوذ سياسي فيما يخص قضايا قومه تماما كإخوته وأقاربه الذين يحظون بالإحترام كشيوخ ولكن دون أن يكون لأى منهم سلطة أو نفوذ فهذا الشيخ مثلا مازال يحتفظ ببرنس حيكت حواشيه بالذهب، إلى جانب بندقية استلمها من القنصل البريطاني، وارنجتون، نيابة عن حكومة بلادى عرفانا بالجميل الذى أسداه إلى البعثة البريطانية المكلفة يومها بالوصول إلى البورنو، إضافة إلى إحتفاظه بشهادة بخط القنصل نفسه، وهو ما أضفى عليه حظوة وتفويضا من الجميع للتعامل مستقبلا مع الانجليز الذين بات

يلقب بصديقهم إذ جرت العادة على وضع جميع الغرباء تحت إشراف شيخ معين للعناية بأمرهم مقابل بعض الهدايا.

يمارس شيخ أي إقليم أو فرع من فروع قبائل طوارق غات البالغة تسعة عشر فرعا، إضافة إلى قبيلة من المرابطية، مقاليد الحكم المطلق الذي يصل إلى درجة الاستقلال التام، علما بأن الجميع يتحدون عن طيب خاطر في حالات الطوارئ، فالدفاع مثلا يظل من الأمور التي لا يمكن التواني، أو التباطؤ بشأنها، ومع أن الطوارق قد يصنفون كأمة من المشائخ، والأمراء، إلا أنهم وبكل معنى الكلمة أمة يتمتع رجالها بكامل الحرية، ولا يملكون شيئا من الصفات السيئة السائدة بين أهل الساحل، أو بين زنوج السودان.

هذا على الصعيد القومي أما إدارة شؤون المدينة ذاتها فتتم من خلال نخبة همها الاشراف على رعاية شؤون قاطنيها، وتتكون من الحاكم، والقاضي الذي يعود في أصله إلى المغرب، وتاجرين معروفين لأن أغلب سكانها هم في الواقع من الارقاء مع نفر من متوسطي الحال من التجار، فالطوارق لا يمثلون في الواقع سوى فئة قليلة تزور المدينة فترة إنعقاد السوق ثم تولي الأدبار إلى أماكن إقامتها الأصلية بعد ذلك التجمع التجاري.

تفد إلى غات خلال موسم تجارتها السنوي المئات من القوافل فإلى جانب القادمة أساسا من بعض المدن الهامة من أرض السودان، وبالذات من كانو، تحل أخرى من إقليم البورنو، ومنطقتي توات وسوف، ومن فزان، وغدامس، وطرابلس، وتونس، ومن بعض المراكز من منطقة شمال مصر كالإسكندرية والفيوم عن طريقة واحة جالو.

تقوم تجارة غات على نظام التبادل الحر، فتجار إقليم أهير مثلا لا يدفعون ضريبة في سوق غات، التي لا يدفع تجارها شيئا في سوق الأولى أملا في تنمية التجارة، التي لا تعرف أية رسوم جمركية بينهم. كما أن تجار الساحل لايدفعون مقابلا أيضا استمرارا لتقليد قديم، وهو ما يثير حفيظة تجار مرزق وأسيادهم من الأتراك، لإنتقال جل التجارة مباشرة من غات الى الجزائر وتونس، وفي هذا حرمان للأتراك من أية عائدات ضريبية، خلافا لسوقي غدامس ومرزق اللتين تفرض فيهما عائدات مجحفة حالت دون تردد تجار غات عليهما، وحرمان ممثل الباب العالي من العائدات غير المباشرة.

ساد سوق الرقيق كسادا ملحوظا في بداية الموسم، إذ لم يتجاوز السعر أربعين دولارا في المتوسط مقابل ستين دولارا في سوق طرابلس، ومع أن الفرق يبدو مجزيا في جانبه النظري، إلا أن إضافة عشرة دولارات أو ما يعبر عنه بضريبة الرأس، على كل بائس يباع في سوق العاصمة، إرضاء لرغبات صاحب القلعة فيها، إضافة إلى ثمن مؤونته وتكاليف حراسته حتى بلوغه سوق النخاسة الأخير على مرأى من مياه المتوسط، لا تترك مجالا لربح يذكر للعديد من التجار الذين يقر أغلبهم بأن ما يقومون به لا يعدو مجرد عادة سيئة، ذلك أن تحقيق عائدات لها قيمتها، إنما يقتصر في الواقع على فئة ينصب تعاملها مع التجار اليهود ممن يتمتعون بالحماية الأجنبية حيث يقوم هؤلاء بإمداد بعض التجار الليبيين بكميات وفيرة من مختلف البضائع المرغوبة في أسواق الصحراء، مقابل أسعار خاصة تسدد بعد فترات متفق عليها، الأمر الذي يدفع ببعضهم على جلب أكبر قدر ممكن من الأرقاء الذين يرتفع سعرهم بشكل ملفت للنظر قرب إنتهاء تلك المواسم وهو ماحدث فعلا إذ إرتفع المتوسط إلى سبعين دولارا.

نعم فقد بيع أكثر من ألف منهم، وهو ما لا يدع مجالا للشك والريبة في أن تجارة رقيق الصحراء إنما تقوم فعلا على أكتاف التجار الأوربيين الذين يحقق الوسطاء من ورائهم عائدا قد لا يقل عن عشرين في المائة إن لم يكن أكثر من ذلك فعلا.

يعاني الرقيق دونما إستثناء يذكر من شدة الجوع الذى يقضي على عدد وفير منهم قبل بلوغ أسواق الساحل إذا لا يزيد ما يقتاتون عليه على كمية هزيلة من التمر تتناقص مع تدني أسعار السوق، خاصة وأن بعضهم أقتيدوا من مناطق غنية نوعا باللحوم والحبوب إلى جانب الخضروات، وفي الوقت الذى لم تزد فيه مؤونتهم على بعض الحشائش مع بعض حبات التمر بين منطقة أهير وغات، مع كل هذا فإن جلهم، كما هو الحال مع حالات كثيرة، يظلون مقيدين بأغلال حديدية تبين أكثر من مرة، أن فكها يحتاج إلى حداد ماهر، وأكثر من هذا أن عليهم – ولو أنهم يمنحنون ملابس نظيفة عند عرضهم للبيع – السير راجلين إلى طرابلس تماما كما فعلوا بين كانو وغات بما في ذلك أطفال الرابعة والخامسة من العمر، والأدهى من كل هذا وذاك تعرض الإناث، بما في ذلك صغيرات السن إلى ما لايعقل من الممارسات الجنسية إرضاء لشهوات ذئاب الصحراء من محترفي تجرة الرقيق البذيئة هذه، الأمر الذى لا ينأى عنه بعض المحترفين من

التجار الأوربيين الذين يقومون، هم الآخرين، بصيد وتكبيل آلاف العبيد من رقابهم ومعاصمهم بسلاسل حديدية حيث يتم شحنهم عن طريق النهر إلى المياه المالحة على طول ساحل غانا، وبعض جهات الساحل الغربي للقارة حيث يزداد نشاط هذه التجارة.

ومهما يكن فإن بعض تجار الرقيق، رغم جملة الممارسات التى لا تمت للاخلاق بصلة، إلا أنهم كتأمين لضمان إستثمارهم، قد يسمحون لما ملكت أيمانهم ببعض الملابس الجديدة، وتزويدهم ببعض الزيت لدهن اجسامهم وبالذات الإناث لإرتفاع أسعارهن النسبى وبالذات ذوات الملامح الجيدة، وصغيرات السن، كما يسمحون للجميع، وخاصة فى المناسبات الدينية فرصا للرقص والغناء، وهو ما يلقى قبولا واستحسانا من الجنسين.

تتمثل باقى مفردات التجارة، إلى جانب تجارة الرقيق، فى نبات السنا، الذى يصدر إلى أوربا لصناعة بعض العقاقير، وأنياب الفيل، وبعض خام الذهب، وريش النعام، وكميات هائلة من الجلود والملاعق، والصحون الخشبية، والأحذية، والأمشاط، وأغلفة الوسائد الجلدية، والأكياس، والحقائب، وقرب الماء والخناجر، والرماح، إضافة إلى بعض السلع التموينية كالسمسم، والقصب، والذرة والجبن الجاف وشرائح اللحم، والفلفل، وبعض اللوز، وكميات من البخور إلى جانب كميات من القطن وبالتحديد الغامق اللون، إلى جانب بعض الحيوانات، وطيور الببغاء.

أما السلع الأوربية فتتمثل أساسا فى الملابس الجاهزة، والحرير والعقود، والمرايا، والأساور الخشبية، وشفرات السيوف وأمواس الحلاقة والقفازات، وعطر الورد، وبعض البسط القطنية، كما تستورد بعض البرانس، والجرود من واحتى سوف وتوات.

وكما فى معظم أسواق الشرق يقوم الدلالون بدور هام فى الترويج للتعامل فى مختلف السلع المعروضة بما فى ذلك الرقيق حيث يتم التعامل بالعملة الاسبانية لأن المتداول من النقود التركية لا يزيد على قطعتين معدنيتين تعرفان بالخروبة وتختلفان فى قيمتها، فكره المواطنين للأتراك قصر التعامل على هاتين القطعتين المحدودتى القيمة، رغم توفر فئات عديدة من هذه العملة فى المناطق المجاورة، كما تتداول بعض القروش التونسية بين تجار شمال أفريقيا، رغم رفض تجار السودان تداولها هى الأخرى، مع تأكيد القول بإختفاء أى أثر لأية عملة ذهبية، أو تلك المصنوعة من النحاس.

غات بلد السلام شعار يردده جميع شيوخ المنطقة، وينعم به جميع الغرباء، فخلال إقامتى لم أر كما لم أسمع عن أية جريمة، فما طرق أذنى وتعرضت له شخصيا لم يزد عن بعض سرقات تافهة من بعض الغرباء الجائعين، أما ماعدا ذلك فقد حضر إلى مقر إقامتى أحد أبناء غدامس ويده تنزف دما لتعرضه للاعتداء أثناء الصلاة من قبل أحد مشاغبى الطوارق، الذى أكد أن دافعه كان فعل قوى لما تعرض له من إهانة لإتهامه، وسط جمع من الناس، بسرقة قربتى ماء من أحد المنازل.

إن إرتكاب مثل هذا العنف المتعمد على مواطن يؤدى فريضته لم يترك مجالا أمام الحاكم إلا إنزال ما رآه من عقاب بحضور الطرف المتضرر، وهكذا جاء القرار بمصادرة منقولات سكن الطارقى، والرمى به فى الطريق، وعلى أن يغادر المدينة فورا. والحق فإن إرتكاب مثل هذه الأفعال لا تكاد تذكر، لما يتحلى به سكانها من دماثة أخلاق وروح إنسانية.

فالطوارق رغم إلحاحهم فى طلب الإحسان، لا يقدمون أبدا على السرقة، كما أنهم لا يأخذو شيئا بدون علم صاحبه، ومهما كان الأمر فإن المرء لا يملك سوف الإعتراف بأن الإقليم بكامله منطقة خالية من الجريمة. وهنا لا أخالنى أبالغ قلة، إن لم يكن إنعدام، المنازعات بين هذا الحشد الكبير من التجار، إنها بالفعل والقوة مدينة السلام حيث يلتقى جميع المشائخ فى ميدان السوق المعروف (بالشلي) للفصل فى أية منازعات. ولو أن الواقع يؤكد أن هذه الإجتماعات ماهى إلا وسيلة لتبادل الأخبار، ومداعبة بعضهم لأنهم بحق قوم يعشقون المداعبة.

وبجلوس الشيخ الكبير، بعد أن يغرس رمحه فى الأرض. وهى عادة لا يحيدون عنها عندما يتوقفون عن السير أو يجلسون، يأخذ بقية المشائخ أماكنهم حيث يعرض للمناقشة إن كان ثمة ما يستحق ذلك ويستدعى الفصل فيه بإقرار غرامة إذ لا وجود لأى نوع من السجون، التى هى نتاج المدنية التى تعيشها الدول المتحضرة، ومع أن العقاب لا يزيد على فرض بعض الغرامات فإننى إنصافا للواقع لم أسمع سوى عن حالة واحدة غرم فيها السلطان غريبين دولارا لكل منهما عقابا على سوء تصرفهما فى الطريق العام.

خصص جزء من ميدان الشلي، نواة المدينة، كسوق رائج للتعامل فى السلع المستوردة أساسا من منطقتى السودان وأهير، وهى البضائع التى جرت العادة على التعامل فيها داخل

المنازل، حيث ينتشر عدد من المقاعد التي تستهوي لقاء المشائخ فترة المساء مشكلة بذلك منظرا أخاذا بجلوسهم متراصين واللثام يغطي معظم وجوههم، وأعداد لا حصر لها من الرماح تقف شامخة وكأنها في إنتظار أوامر الحرب، خاصة وأن أصحابها يبدون كالجثث الهامدة إذ لا أحد ينبس بحرف، حتى بين أعز الأصدقاء، إنها صفة التريث إحدى مظاهر الكبرياء والوجاهة عند هؤلاء القوم.

يحتاج إستمرار وتنشيط العمل التجاري، إلى جانب الظروف الداعية إلى قيامه أصلا، إلى بعض المقومات المساعدة كالأمانة والصدق والإلمام بالقراءة والكتابة وحسن المعشر، والإلتزام بأصول الشريعة، ومع إدراك القوم لموقع مدينتهم الجغرافي المتطرف كان عليهم وضع نظام بريدي يلبي بعض الاحتياجات، الأمر الذي أوجد ما يمكن الإشارة إليه بنظام سعاة البريد الذين لا يستعملون وسيلة للإنتقال إلا إذا كان عليهم السفر عبر الصحراء ذلك أن التنقل حيث يتوفر الماء دونما عناء يذكر لا يستدعي وسائل خاصة، علما بأن ما يتقاضونه من أجر إنما يتوقف في المقام الأول على إمكانيات التجار من جهة، وما يحمله الساعي، أو يأتي به من أنباء من جهة ثانية، فالساعي بين غات وطرابلس، وبالذات حين يتحتم عليه إحضار رد ما، يحصل على خمسة عشر دولارا، في حين يهبط الأجر إلى النصف مقابل أتعاب من يقومون بالعمل بين غات وغدامس بما في ذلك مؤونة المهري الذي يمثل ركيزة لا يمكن الإستغناء عنها في مثل هذه الأحوال. فهذا الجمل الفريد الذي يشبه كلب الصيد في سرعته ورشاقته وشكله أيضا يدرب للركوب وللحرب أيضا رغم تأثره البالغ بالبرد الشديد، كما هو الحال مع الطوارق أنفسهم الذين يعزفون عن تربية الأبل العادية المنتشرة في شمال القارة.

أمر كل مساء بالمدرسة الليلية بينما الأطفال يرددون دروسهم القرآنية، بشكل لا يختلف كثيرا عن رياض الأطفال في بلادي والطريف أنني لم أشاهد من قبل مدرسة ليلية في كامل منطقة الشمال الأفريقي، مما جعلني أنظر إليها على أنها عينة من النظام التعليمي المميز لأنها أعطت الفرصة لكل أبناء الواحة، من الذكور، تعلم القراءة والكتابة، وهي حقيقة تبين أن ما ندعوهم بالبرابرة إنما يملكون إحساسا مؤلما عند أبناء الأنجليز المتحضرين، فنحن كإنجليز، رغم

فخرنا بما نتمتع به من حريات، إلا أننا لا نستطيع أن نفاخر بما أنجزه أبناء الصحراء، إذ يستحيل علينا الإدعاء بأن كل أبنائنا يملكون القدرة على قراءة الكتاب المقدس.

سألنى السلطان ذات مرة إن كان أطفال الإنجليز يتعلمون القراءة والكتابة كما يفعل أطفاله الذين أسمع ترديدهم لآيات القرآن من داخل حجرتى.. كان ردي بالإيجاب، وهو الرد الذى نقله إلى فبناته، يفعلن نفس الشئ، وللحق فقد سررت كثيرا لأرى تعليم البنات يأخذ طريقه هو الآخر.

إن الحديث عن تعليم المرأة فى هذه الواحة الثانية يدفع إلى التأكيد بأن المرأة الطارقية ليست كنظيرتها فى منطقة المغرب العربى، والمرأة المسلمة بوجه عام، لتمتعها بقسط وافر من الحرية، ومشاركتها فى الرأى فى كل ما يتعلق بأمور الحياة لتمتعها بقدر كبير من الحيوية، فنساء الطوارق لا يتوارن عن الأنظار وسط تجمع الرجال، ومع إقامتهن للصلوات بكامل الخشوع، إلا أنهن لا يعرفن للحجاب طريقا وأدى بالتالى إلى إختفاء ظاهرة الغيرة بين رجالهن. وللعلم فقد شاهدت بنات الحاكم المراهقات أثناء قيام إحدى مصففات الشعر بوضع اللمسات الأخيرة على شعرهن حسب آخر ما عرفته المرأة الصحراوية فى هذا المضمار، رغم حرصها البالغ على أن تبقى البساطة التامة هى آخر ما تفكر فيما تستعمله من ملابس والممثلة أساسا فى قميص وفستان قصيرين مع إرتداء خف أو حذاء حسبما يروق لها، مع ميل واضح إلى استعمال عقود المرجان، والأساور الخشبية، أو تلك المصنوعة من معادن خفيفة، وعموما تعتبر المرأة الطارقية امرأة عاملة مقارنة بغيرها، مع ميلهن إلى عدم استعمال مساحيق الوجه الذى يكاد يخلو من أى أثر للوشم. والغريب والملفت للنظر حقا عن المرأة هنا أنها هى المالكة الوحيدة لجل مساكن المدينة، إضافة إلى أن ابنها هو الوارث الوحيد لخاله، ولذا فإن ابن السلطان لا يحق له مطلقا ارث وتولى مركز والده.

نالت المرأة فى مجتمع الطوارق فرع الأزجر، بمعر ادارته فى غات، مركزا تحسدها عليه أخواتها المسلمات، لما تمتتع به من حرية حافظت من خلالها على تعاليم دينها، وحالت بينها وبين شرور الرذيلة وجعلت منها طرفا مشاركا فى كل شئ بدءا من المحافظة على نقاء وسمو الأصل العرقي، وإنتهاء بكونها إمرأة لا تعرف غير العمل وبذل الجهد بديلا.

لقد إشتهر الطوارق بجانب شغفهم بالحرية، وإستعمال السيوف دون غيرها من الأسلحة وتفضيلهم للون الأسود دون سواه، بأن امتلكوا أيضا شهرة نفورهم من الغيرة وتبجيل المرأة بشكل قد لا يتوفر في مكان أخر.

تحتل مقبرة غات مساحة أكبر من تلك التي يستعملها الأحياء، علما بأن إعادة استعمال المقابر، التي تقوم عادة على أطراف الواحات الصحراوية، تأخذ وقتا طويلا، ومع ذلك لم أشاهد سوى قبر مطلي باللون الأبيض خلافا للقبور التي لا تعدو مجرد أكوام من الحجارة صفت دونما تناسق يذكر بحيث تميز منطقة الرأس فيها بوضع قطعة حجر أكبر من غيرها.

يبغض أهل الشمال الأفريقي الإقامة في مدينة غات لأنها، ولهم الحق في ذلك كامل الحق، مكان آيل للسقوط رغم أن منظر الإقليم من حولها أزهى وأكثر جاذبية من بقية الواحات الأخرى، فهذه المدينة التي يؤكد الحاكم أسبقيتها في الظهور عن مدينة غدامس، لا يستغرق الدوران حول سورها أكثر من نصف ساعة. ورغم توفر المياه الجيدة جدا من العديد من العيون الجارية، إلا أن العمل الزراعي محدود جدا ويكاد ينحصر في تلك المزارع الصغيرة التي أقامها الحاكم وأبناؤه الذين تبشر نتائج أعمالهم بإمكانية تحولها إلى وحدة زراعية تفوق تلك الواحات التي تعاني من نقص ظاهر في إحتياجاتها المائية، إضافة إلى رداءة نوعها، ولذلك فإن القول بأن المياه الممتازة تنتج أنواعا مميزة من النخيل قول غير صحيح، إذ لو كان الامر كذلك لكانت تمور غات أجود من غيرها وهو ما ليس في الحقيقة في شئ لأن أغلب نخيلها من النوع الهزيل ورديء التمر. فالزراعة حرفة تحتاج إلى من يهتم بها ويبذل الجهد والعرق في سبيل العناية بها، الأمر الذي لا يتوفر مطلقا لدى أغلبية السكان الذين يعتمدون على عمل الرقيق بينما يركنوا هم إلى الراحة، وإحتراز الأخبار والتغني بما توارى من صفحات الماضي، مع الإشارة إلى أن أجر العامل العادي لا يزيد على مقدار ضئيل من الذرة أو القصب اللذين يشكلان، مع إضافة بعض الزيت، المؤونة الرئيسية. كما أن تحطيم لب (نوى) البلح يمثل عملا للفقراء من أبناء المنطقة إذ يحصلون من ورائه ما يكفي لقوت يومهم، وأبناء غات الذين يقومون بهذا العمل إنما يوفرون جزءا هاما من علف الإبل والضأن التي تبدو هزيلة دوما مقابل جروبين في اليوم هي كل مصدر رزقهم، نعم فكم تعساء جميع الفقراء أينما كانوا وتحت مظلة أي نوع من المناخ!!

لا يختلف الطابع المعماري لمباني غات كثيرا عن مباني غدامس، بإستثناء اللمسات الأخيرة والنهائية لمباني الأخيرة التي تنال عناية أكثر بإدخال بعض الزخارف عليها، في الوقت التي تغلف فيه معظم الجدران بكليتها بطبقة من الوحل مثلما هو الحال مع الأسقف، ولو أن طريقة التنفيذ لا تخلو من سوء الصنعة وبالذات جدران الدواليب الحائطية التي تأخذ شكلا مربعا أو ثلاثي الأبعاد، وهو الشكل الغالب على معظم النوافذ، مع الإشارة إلى أن خشب النخيل وأغصانها إنما يشكلان المادة المتداولة في أغلب الإستعمالات التي تتطلب خشبا عاديا، ومع أن أبواب المنازل تتخذ شكل المربعات هي الأخرى، إلا أن بعضها لا يمكن عبورها دون الإنحناء الواضح. أما بخصوص الأقفال المستعملة فإن المرء لا يملك سوى إبداء إعجابه بطريقة صنعها، مثلما هو الحال مع المفاتيح إذ لن يكون بمقدرة الانسان العادي سهولة التعامل معها. هذا وتفرش أرضية المنازل، بما في ذلك غرف النوم، بطبقة ظاهرة السمك من الرمل الذي يتوقف مدى نعومته ونظافته على قدرة وإستعداد صاحب المنزل نفسه.

إن ممارسة الرق على نطاق واسع من قبل الأوربيين على السكان الأفارقة حدث لا يمت بجذور موغلة في القدم، لأنه فعلا حدث وليد التاريخ الحديث، في الوقت الذي كانت فيه هذه الظاهرة البشعة معروفة، ويمارسها الأغريق والرومان الذين باشروا نفس العملية على نطاق محدود وبدون إعتبار على أساس أنهم أفارقة، لأنهم تعمدوا بالفعل إسترقاق البعض كضرورة تحتمها ظروف حياتهم، ولو كانوا من بني جلدتهم، وأكثر من هذا كان الرق ظاهرة معروفة إذ مارسها اليهود والإغريق والرومان حتى بعد ظهور المسيحية.

ومع إقرار الجميع بأن الرق من الأمور التي بات يندى لها الجبين، وتتكاثف الجهود للحد منه، والقضاء عليه نهائيا إلا أن بعض الرهبان الجشعين من أبناء الجمهورية الجديدة في أمريكا، لا يزالون يتحدثون عنه وكأنه مباح وتفرزه الظروف اللازمة للتطور والنمو الاقتصادي مستندين في ذلك إلى أن دعاة المسيحية الأوائل لم يشجبوا هذا الفعل بما فيه الكفاية وإلى الحد الذي يحرمه، ويجعل منه عند الضرورة أمرا لا يتعدى إرتكاب معصية يمكن التغاضي عنها، رغم منافاتها المطلقة للأخلاق، وتعارضها مع قوانين المجتمعات الحديثة، لأنها لا تزيد عن ممارسة المرابأة أو تعدد الزوجات.

وعلى أية حال لا يجوز لأى عاقل أن يؤمن بأن الرق لا يناهض العادات والقوانين لمجرد أن الحواريين والمبشرين بالإنجيل لم يشجبوه.

حل يوم الخامس من فبراير عام 1846 كموعد لرحيلنا الذى طال إنتظاره، فنهاية كل شئ بما فيه الممتع وخلافه آتية لا ريب فيها ولو فى الصحراء حيث المماطلة وضياع الوقت هدرا من السمات التي لا تفارق حياة أهلها، فقد تأجل موعد مغادرتي مدة ثلاثة اسابيع كاملة عن الموعد المحدد لها أصلا، وعلى أية حال بدت المدينة وكأنها خالية من السكان تماما، إذ بمجرد مغادرة القوافل تتحول المدينة إلى نوع من سكوت الموت، وهو ما ينطبق على جميع مراكز الأسواق الفصلية داخل النطاق الصحراوى.

ضمت قافلتنا المتجهة إلى مرزق أحد عشر جملا، وخمسة تجار، وقرابة ستين من الخدم، ومثلهم من العبيد، الذين يملك الحاج إبراهيم أغلبهم، والمكونين أساسا من فتيات سبق لهن الزواج، إضافة إلى عدد من الصبية، وثلاثة أطفال صغار، وللحق يعامل المذكور عبيده بطريقة لائقة جدا، ويلبى كل طلباتهم مع كل حرصه على حرية النساء منهم، وإنصافا للواقع تمثل هذه القافلة قمة الإستعداد بالنسبة لغيرها من القوافل التي رافقتها، ويجعل منها مثالا جيدا لقوافل الرقيق لولا مشقة مواصلة السفر طوال ساعات النهار.

نعم فهذا الحشد من الخدم والعبيد، ورغم جودة الاعداد له، لا يعدو أن يكون حلقة مستمرة من الصراعات والمآسى ضمن دوامة التاريخ المحلى لأفريقيا، فعالم الوجود الأفريقى ربما كان من الأفضل له ألا يخلق أصلا.

بالقدر الكافى، وحتى مع الافتراض بأن هاتين الفئتين قد قامتا بمزاولة الرق، أو أنهما إستقبلتا سرا تجار الرقيق وغيرهم ممن يتعاملون فى مثل هذا النوع المشين من التعامل، فإن الواقع لا يبيح لنا مجاراتهما فيما ذهبنا إليه، بل على العكس يتحتم علينا التنديد واستنكار هذا العمل بكل الوسائل ومهما كانت الظروف والملابسات.

(تشجب الفقرات السابقة دعاة المسيحية الذين شيدوا كنائسهم من أرباح تلك التجارة، ومع أن الكاتب قد صب جم غضبه على مثل هذه التصرفات إلا أنه يقف عاجزا عن الإفصاح عن

تحريم هذا الفعل مثلما جاء به الدين الإسلامى خلافا لسلوك بعض ضعاف النفوس من المسلمين الذين عليهم وحدهم يقع وزر ممارسة تصرفاتهم المقيتة).

رافقنى القنصل الإنجليز لبعض الوقت، كما حضر الحاكم لتوديعى بحرارة بعد أن دعا لى بالأمان والسلامة.

يتبين عند مقارنة السمات العامة لسكان الصحراء بمثيلاتها فى أوربا عن واقع الجريمة التى تتشكل أبعادها من الكذب والنفاق، إضافة إلى الخداع والسرقة، إلى جانب الفسق وتعمد القتل، مقابل قول الصدق والأمانة المقرونين بكبح جماح الشهوات، وإحترام حياة الإنسان، إن الحكم على مستوى الحياة الإجتماعية لسكان غات كمثال لأهل الصحراء، انطلاقا من المبادئ الأربعة الأخيرة ومقارنتها بأوربا، يدعونى إلى الاعتراف الصريح بعدم حدوث واقعة واحدة مما يجرح الشعور، أو يحدث إصابة بالغة، أو يفضى إلى القتل، فقد تمت ثلاث محاولات أساءت إلى شعور الآخرين، أحدثت جروحا عادية قام بها بعض رعاع الطوارق.

نعم لم يحدث أكثر من هذا خلال إقامتى بالمدينة التي تعد بمثابة معرض أو سوق، ومنطقة إلتقاء لجميع القبائل ومن مختلف جهات أفريقيا الوسطى ... أليس هذا نوعا من تبجيل وإحترام النفس الإنسانية بين برابرة الصحراء!!

ومع أن الفقر يشكل أحد أعمدة الحياة فى المملكة المتحدة، ويمثل مرتبة الشيطان نفسه فى أيرلندة، حيث يموت الناس من الفقر، فإن الصحراء، وعلى خلاف ذلك، تقدم أقوى نقيض بالنسبة لنا وإحتياجاتنا إذ لم أسمع أبدا عن إنسان يموت جوعا هنا.

أخذ العبيد ساعة الرحيل، وكما هى عادتهم دوما، يغنون أغنية حزينة لرفع معنوياتهم وهم يواجهون مرحلة جديدة قد لا تكون الأخيرة أيضا... أما بالنسبة لى فقد شعرت بنوع من السعادة إذ بعد ساعات قليلة سأفرش مرتبة نومى قرب شجرة أثل صغيرة متطلعا ليوم جديد.